المدُّ القوميُ في الشّعر النّسوي الجزائري

أ/ ناصر معماش
قسم اللغة والأدب العربي-
جامعة جيجل

كان الشعر العربي ومازال وسيلة يفصح من خلالها الشعراء عن انتماءاتهم ويقرّون بالمحيط الذي ولدوا وترعرعوا فيه، يعتصمون بثقافته ويستلهمون منه أفكارهم.وهذا شأن الشعراء منذ نشأة الشعر، فاليونانيون القدامى مجّدوا تاريخهم وتغنوا بحضارتهم، وكتبوا ملاحم تسجل انتصاراتهم وعظمة فلسفتهم،كما توجّه الشّعراء إلى التعبير عن الأقوام الأخرى لما في ذلك من روابط تجمعهم، فتغنّوا بها. وفي الآداب العالمية نصيب وافر للقومية التي تحولت عبر القرون إلى مصطلح فلسفي شامل يمس كل جوانب الحياة للمجتمعات في علاقاتها بغيرها ثقافيا واقتصاديا وسياسيا ورياضيا...

أما الشعر العربي، وهو يساير حلّ قضايا الأمة العربية، لم يعرف هذا الاتجاه عن وعي ثقافي يشمل العرب كظاهرة إنسانية، لهم أساليب تفكيرهم الخاصة، وتطلعاتهم الفكرية والسياسية، لأن الوطن العربي تعرض لكثير من الظروف جعلت الشعراء باختلاف بيئاتهم، ومستوياتهم المعيشية، وحياتهم الثّقافية يفكرون أحيانا عكس التيّار، وأحيانا يتعصّبون لمحيطهم الضيّق من القبيلة إلى الجهوية إلى الوطن الجغرافي الحالي.

وإذا كان ما ذكرناه في حديثنا عن الوطن صورة للانتماء والاعتزاز به والتمسك بعرفه وعاداته وتقاليده لدى بعض الشعراء الجاهليين، فإن هناك حالات شاذة كانت تسعى للإصلاح والوحدة وفكّ النزاعات القائمة بين القبائل العربية المختلفة، بلا أسباب بيّنة للاختلاف، ولذلك اعتُبر "زهير بن أبي سلمى"1 ظاهرة فريدة تفكّر في مستقبل كان مستحيل التحقيق نظرا للتعصب الأعمى، الذي أصاب الصالح والفاسد ودمّر الفكر وقطع الأرحام.غير أننا نلمس بعض الإحساس بالانتماء للقومية في ثوبها الجديد –آنذاك- حين نقرأ بيت "حسان بن ثابت الأنصاري":2

أكرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تفرّقت الاهواء والشّيع3

وقد يعدّ هذا التصريح بداية لتكوين القومية التي تخضع لشروط أربعة (الدّين واللّغة والتّاريخ والمصير المشترك)، وإنّ "حسّان" كان يقصد من أسلم من العرب آنذاك، وفي اعتزازه بقومه (الأجداد)، بداية التقاء القبائل ممثلة في بعض أفرادها الذين أسلموا ودخلوا في فكر جديد. وبتطور المجتمعات الإنسانية التي انطلقت من فكرة فصارت عمرانا ومدنا وأوطانا ثم محيطا جغرافيا له خصائص موحدة، وبتعرض هذه المجتمعات للمد الاستعماري، تبلورت فكرة القومية تبلورا جديدا، كان أساسه الإحساس بالظلم والاستبداد

ويرى "عبد الله الركيبي " أن "القومية العربية والدعوة إلى وحدة عربية شاملة ظهرت متأخرة بصورتها الحالية، حيث اتضحت الحاجة الملحة إلى ذلك سياسيا وحضاريا وقوميا"4 غير أن الفكرة

الأولى كانت تنطلق من الدعوة إلى "الانفصال عن الأتراك"5، وبعد الحرب العالمية الثانية "بدأت الثورات والانتفاضات العربية تجتاح العالم العربي وتهز الأفكار القديمة، وظهرت فكرة القومية العربية كهدف ومبدأ لتحرير الوطن العربي من النفوذ الاستعماري، وتحرير الوطن -الفرد- من استغلال الطبقة الحاكمة والإقطاع المرتبط بالنفوذ الأجنبي"6

أما في الجزائر التي كانت في تلك الفترة في صراع مستمر، تجابه من خلاله قوى الاستعمار الغربي (الأوربي)،لم يمنعها ذلك من أن يتطلع شعراؤها إلى التعبير عن انتمائهم لقوميتهم العربية الإسلامية، وقصيدة (شعب الجزائر مسلم) "للإمام عبد الحميد بن باديس" صورة حية لمدى إحساس الفرد الجزائري بروابط الأخوة والإنسانية اتجاه من تعرضوا للاستعمار وخاصة العرب منهم، وقد أشار "عبد الله الركيبي" إلى ذلك في كتابه (قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر)7ومثّل بنصوص لبعض الشعراء أمثال "محمد العيد آل خليفة"، و"عبد الكريم العقون"، و"مفدي زكرياء"، وغيرهم.

وبما أن المرأة لم تسهم في هذا المجال، لأن الشعر النسوي لم يكن متداولا آنذاك، إلاّ أنّنا حين ننظر في النصوص المتوافرة حاليا، وإن كانت وليدة ما بعد الاستقلال، نجد أنّ الشاعرة الجزائرية لا تفرق بين وطنها وانتمائها التاريخي الأوسع، المتمثل في قوميتها بانتسابها إلى واقع حضاري لا يعرف إلا اللغة والعقيدة والماضي المشترك والمصير المنتظر، وهي خصائص تشترك فيها مع من يقاسمها هذا المجال، حتى ولو كان في غير أرضها وفي غير أفق تفكيرها.

فـ"مبروكة بوساحة" لا ترى فرقا بين الدفاع عن الجزائر وعن العروبة متخذة (فلسطين) ظاهرة فكرية شعورية تعشش في كيان أفراد المجتمع الجزائري، فتصرح على لسانهم أنّهم لن يذوقوا طعم النوم حتى تتلاقى قبلاتهم ويروا فلسطين مستقلة نظيفة من دنس اليهود:

يا ثرى كالمسك طيبا عابق خلف الحدود
ضمخته بدماها قبل آبائي الجدود
أي طهر دنسته فيك أرجاس اليهود

أبدا لن نترك الثأر ولن ننسى حمانا
لن نذوق النوم حتى تتلاقى قبلتانا
ونراه رافع الرأس عزيزا، ويرانا
سنفي بالوعد (يافا) فاستعدي للقاء
ونرد الحيف (حيفا) بالضحايا والدماء
ونغطي كل شبر في الحمى بالشهداء
يا فلسطين بلادي يا فلسطين الحبيبهْ
إن أيام التلاقي أصبحت جد قريبهْ
لن تعودي مثلما كنت فلسطين السليبهْ 8

إنّ فلسطين هي الجزائر، والجزائر بشعرائها ومفكريها وأفرادها تتفاءل بقرب النصر، واقتراب الثورة، ويبدو أن القصيدة كتبت قبيل الحرب العربية

الإسرائيلية أو أثناءها سنة 1967م، فعاشتها الشعوب العربية بحلاوة انتصارها ثم بنكسة انهزامها.

وهذا النزوع القومي نحو النصر وتحقيق مبدإ السيادة والحرية المطلقة يتعدى الحديث عن الاستعمار إلى التطرق الكاشف للخلل الاجتماعي في بعض الأقطار العربية، والذي أسهم في انتشار الفساد ورواج ظواهر خطيرة حطمت كاهل التفكير في التخلص من جراثيم التبعية. وهو ما جعل "زينب الأعوج" تكشف الستار عن سلوك نابٍ وواقع هدّام، حين تقول:

مسحتْ مؤخرة طفلها بقطعة خبز
وغسلت رحمها فجرا بحليب الأموات
بكى الطفل، ولم يصدق، فالكذبة أكبر من أن تصدق
زمانا حدثوه عن الخبز المحتجز في الجمارك
وعن كلاب الصيد البشريهْ
والحليب الحروق في الأثداء
عن أرحام تباع في العلب الليليهْ
وعن أطفال تقاسم صرخاتهم شطار النفط
في المزادات العلنيهْ
في بلد ما .. وفي زمن ما..
كان أمير يزف قطته بكل أموال الخزينهْ
وبقايا عظام الشهداء...
قفوا دقيقة صمت.. إنها أعراس الأمراء؟

9

لقد صورت حالة اجتماعية تحيل أسبابها إلى فساد بعض الأنظمة، واكتفت بالإشارة إلى بلد ما..

وزمن ما، إذ لا يهم الزمان ولا المكان مادامت الدول العربية النفطية تعيش على بقايا فتات الحضارات، وإن كان رأي "الأعوج" مناهضا للطبقية الفاحشة فهي ذات توجه (اشتراكي) ظهر جليا في نصوصها، غير أنها تشير إلى عقلية الفرد العربي -سواء في الجزائر أو في غيرها- في كونه يعاني من إحباط أخلاقي في بعض تصرفاته كتلك المرأة التي تجحد نعمة الله، فلم يصدق الطفل هذا الفعل المخل بالحياء، وفي المقابل هناك من الأمراء على حد تعبيرها من يفرغ خزائن الشعب لأجل أمر ليس بوسع العقل البشري أن يتصور تفاهته المنظمة، ويتحول لديها الوطن إلى (العروبة) بكل أنظمتها، تقول:

يا وطني .. يا وطني
يا ليلى .. وجهك غاب في حفر النفط
هو دم الشهداء يا طفلة عربية الهم... [10]

فكل امرأة في نظر الشاعرة هي (ليلى العربية) تحمل همّا قوميا بتغير نظرة الرجل إليها، وهؤلاء هم حراس النفط الذين يغيرون دم الشهداء بالعملة الصعبة، ورغم ذلك يبقى الفقر عامًّا فيصبح الرغيف كعظام الموتى، وتضيع حقوق الشعوب العربية، باستحواذ طبقة ما على عائدات النفط، وعدم إشارتها إلى وطن بعينه تعميم للحكم على جميع الأوطان العربية، وإن اختلفت أنظمتها السياسية.

وفي رسالة اعتراف إلى الحكماء العرب عام 1977م، توضح "زينب الأعوج" أسباب نكسة العرب،

وتتنبأ بمستقبل واهن ضعيف إذا ما انتهجوا سياسة عزل الشعوب ورفض مبادرات أصحاب العقول البناءة المطوّرة:

لا تسألوني عن الزمان
سادتي الجبناء
فكثرة الكلام صارت ثرثرهْ
والفتيلة قلّ من يوقدها
فلا تبكوا الهزيمهْ.. سادتي الحكماء
فالسيف صار تحفة تُزار
لا تسألوني فقد كرهت جنبكم
وسري .. سيبقى سرّي
وحين يأتي يوم(الفُصح)
سأريكم كم هي غائرة جراحي11!

لقد أدركت الشّاعرة أخيرا غياب الحكمة ، وما جوع الأطفال إلا دلالة على عدم استطاعة (الحكماء الجبناء) على حد وصفها لهم تسيير شؤون بلدانهم، فحدث أن تسرب الناس خلف الحدود باحثين عن كل ما يوفر لهم أدنى شروط الحياة و الإحساس بالأمان، وخاصة عندما لم يجدوا من يشعل فتيلة الثورة على الجمود، وعلى الهزيمة النكراء التي أحبطت من عزيمة الناهضين ضد الظلم الإسرائيلي للفلسطينيين والعرب أجمعين،لأن السيف الذي كان رمزا للتحرر أصبح أثرا لا يُرى إلا في المتاحف، وتتنبأ الشاعرة بأن يعمّ عيد الفصح12 (وهو عيد من أعياد اليهود) المناطق العربية ويصبح الاحتفال به أمرا محتوما، لأن الخطب الموسمية والكلام السياسي لم يعدا يجديان نفعا ولا يوقفان زحفا، ولا يستردان أرضا مغتصبة.

والنظرة نفسها تتبناها "ربيعة جلطي"، إذ تحمّل الزعماء العرب الهزائم المتكررة، ولم تجد سوى استحضار نوح- عليه السلام- لتبثه أحزانها:

يا نوح، فقراء هذا البلد نحن
نكتب أسماءنا بالدم على نهر ملوية والأطلسي
نرسم للشمس وجها جميلا
نغني.. نغرق
في قصعة دم نصير
وهذي الأرض الكروية الهاربة إلى نفسها
تشوى .. تشوى.. تشوى
تنضج .. تتفجر في (كرش) الأمير13

إن هذا الوطن رغم تضاريسه المتباينة وخيراته التي لا تعد ولا تحصى، إلا أن الشعوب فقيرة، والأرض وما عليها لقمة في (كرش) الأمير على حد تعبيرها، فالأمراء يموتون مرة والشعوب تموت مرات في اليوم؛ لأن المعتقد يُباع مع البترول، وما يبقى للناس سوى الكتابة والمحنة.

ويستوقفها (الوطن العربي) ممثلا في السودان، رافعة فاتحة القصيد إلى المناضل السوداني "عبد الخالق محجوب"، الذي (يستيقظ الآن في ساعد كل فلاح وعامل) تقول:

عندما يحرك الخط للوراء، يكفر وجهي
وحين تحرك مراكبك نحوي
يا وطني، الشريان بيني وبين المحار

وهم الشعب الجمري14

إنّ العلاقة تكاملية بين الشعوب العربية، فحين يحرك السوداني مراكبه نحو الشاعرة تصير مرفأ ومدينة تستقبل بواخره المعبأة بالفكر المناهض لأشكال الأنظمة العربية، وتؤكد على أن الشعب العربي يعيش ظروفا واحدة رغم الصراعات الحدودية التي مزقت كاهل الأمة، وتقول في القصيدة نفسها:

أيها المحجوب خلف العباءة
إني أرمي جلبابي الأسود على عيون الهجر
بالضفة الأخرى...
أيها المحجوب، المبعوث في أكوام التبن
وعرق الملح الأسود !
في طريقي إليكَ.. أصير أسطورة،

عملاقا15

والمرأة الجزائرية التي حملت نضجا سياسيا مبكرا نتيجة الظروف الاجتماعية والسياسية، لم تتأخر في فهم قضايا الشعوب الأخرى واستيعابها، خاصة العربية، لذلك جعلت "ربيعة جلطي" اتصالها الشعري بالمناضل السوداني "عبد الخالق محجوب" مثالا حيّا عن كل حالة يعيشها أفراد هذا المجتمع الكبير وفق منهج تراه الشاعرة اشتراكيا نضاليا عُمّاليا، فتتحول بذلك تلك المرأة المرتدية العباءة السوداء إلى عملاق أسطوري يقهر كل الأنظمة مادام أسطورة اشتراكية. ولا نلحظ اختلافا بين هذا الموقف وموقف آخر في قصيدة (السؤال المحظور):

أنت, يا أنت المستفيق من العذاب المجاني,

فجرْ آبار البترول...
ما دام ملوك النفط يقطعون رؤوس الفقراء .. الثوار،
يعلقونها على مشجب المزاد العلني
وعلى موائد الليالي (الألف والليلة)
يوقع السلطان على ذيل التصريح
تشق آبارنا الطريق (لنيويورك)
تزحف المشنقة بهدوء على أعناق الفقراء
والجرح يخترق حدود الجرح
وتصب دماؤنا في نهر بطول التاريخ 16

إن ثنائية (البترول والجراح) تتكامل في الوطن العربي، فإن كان البترول يجلب لملاّكه وملوكه خزائن العالم، وبمجرد توقيع بسيط، تشق الآبار طريقها إلى أكبر عواصم العالم، إلاّ أنّه في الوقت نفسه تزحف المشنقة بهدوء وبصمت نحو الفقراء تبحث عن رؤوسهم لتصنع منها آبارا أخرى من اللون الأحمر، فيصبح هذا اللون رمزا مشتركا بين النعمة والفقر، وهي إشارة طريفة إلى الحكم (الديكتاتوري)- ولو تلوّنت أساليبه- وإلى استفادة الأقلية وهلاك الأكثرية بسبب غياب العدالة الاجتماعية التي تراها الشاعرة مستحيلة إلا إذا حدثت ثورة شعبية تنسل من أجداث الأحياء الشعبية في كافة الأقطار العربية:

يا رفيقي !
تعال نسمّر قلبينا على أسوار الأحياء الشعبية

فالمنشورات السرية لم تعد تسع عشق القضية17

فهي دعوة صريحة للنهوض ضد أساليب الحكم، ويجب على (الرفقاء) -وهو رمز اتخذه الشعراء الاشتراكيون - أن يثوروا مدافعين عن القضية، لأن المنشورات السرية لم تعد تجدي نفعا. والملاحظ أن الشاعرة "جلطي" تمزج في نصوصها بين القضية الوطنية والقضايا العربية، وربما تتعدى ذلك بالتطرق إلى الحديث عن قضايا الشعوب المتحررة بشرط أن تمجّد النظام الاشتراكي القائم على سياسة ديمقراطية، والسّائرة آنذاك في خط الاتحاد السوفيتي، ولذلك تتهم الأمراء العرب الذين يصدّرون (البترول) إلى أمريكا بأنهم خانوا أمانة أوطانهم ومسخوا مبادئ شهدائهم، وأن فعلهم هذا بادرة نحو الرأسمالية الإمبريالية.

أما "نورة سعدي" فترى أن اعتزازها بقوميتها، وانتماءها لهذا الوطن المترامي من الشرق إلى الغرب، إنّما هو سلوك حضاري يومي، يؤمن به الفرد العربي، فيترجمه إلى أفعال واعية تتعاشر من خلاله الأصالة والمعاصرة، ولا يتأتى ذلك إلا بالعلاقات الروحية النابعة من الاعتزاز بالأصل بين الرجل والمرأة، لذلك ترى ظاهرة عزوف الرجل العربي عن المرأة العربية مرضا دخيلا سيفسد النظام الأسري القائم على عادات وتقاليد راسخة في جذور إسلامية توارثها المجتمع العربي. وهروب الرجل إلى أسباب الحضارة الزائلة -على حد تعبيرها- هو نوع من المساهمة في احتقار المرأة وتهميشها، لذلك تقر بأنها -وهي تتكلم على لسان النساء العربيات- مصممة على أن تبقى محافظة على أخلاقها، متمسكة بعاداتها وتقاليدها، وعلى

مكانتها بوصفها امرأة كرّمها الإسلام فأحسن تكريمها، ثم تقيم مقارنة صريحة بين عفّتها ومجون "موريس"، تقول في قصيدة (كلمات من مفكرة ليالي ستراسبورغ):

... فكل الذي قد صبوت إليه
أتاك هديةْ...
فصرت ترى في المجون رقيةْ،
وأمسى الخضوع لديك هدى
وأحلى سجيه ...
فواه وآه على النخوة العربيةْ[18]

لقد قدّمت المرأة الكثير من التضحيات في سبيل الحفاظ على النخوة العربية، وإذ تشير الشاعرة إلى فئة من الشباب المنسلخ عن مبادئه وبحثه عن توجهات جديدة، وسلوك يتنافى ومعتقده الإسلامي، فهي تؤكد أن الحضارة ليست تقليدا يحول بين الإنسان وعالم القيم الأخلاقية المتعارفة. وتكرر الشاعرة الموضوع نفسه في قصيدة (بكائية فارس صار قردا)، فتصور معاناة المرأة العربية الثائرة التي لم تهضم فكرة هجرة الرجل واندماجه في عالم غربي يختلف كل الاختلاف عن بساطة العربي وأصالته، فتخاطب هذا الرجل قائلة: "كل شيء فيك يا أنت جديد"[19] ، وهي رؤية لواقع آخر؛ إذ كيف يجوز للرجل العربي أن ينسى أو يتناسى أنّه كان مستدمرا من طرف هذا العالم اللاهث وراء المادة، والذي يرى الحضارة في الرقص والاختلاط والمجون. ورأي الشاعرة -وإن كان في ظاهره يحمل سمات واقعية- إلا أن هذا العالم ليس كما وصفته، وإلا لكان في أدنى الدركات بعد المجتمعات المتخلفة. ورغم ذلك تظل "نورة سعدي" في معظم نصوصها تتّخذ

العروبة منطلقا لتدفقها الشعوري، وهي لا تفصل بين العروبة والإسلام؛ إذ تراهما جذرا واحدا لشجرة نسبها:

إنني الآن فتاةْ
من رهينات القبورْ
فاتها ركب الرقي
فأضاعت كل فهم للأمورْ
منطقي عين الصوابْ
وسلوكي نفحة جاء بها أسمى كتابْ 20

والصراع إذا، بين أن تكون المرأة مقلدة للمرأة الغربية أو أن تتمسك بمنطقها الذي هو عين الصواب، ولا يهم أن تنعت بالتخلف وأن تكون رهينة القبور لا تستطيع اللّحاق بركب الرقي، ما دامت مقتنعة بما تفعله، وهي فخورة بحالها ما دام سلوكها نفحة من نفحات القرآن الكريم. وهذه النظرة التي يغلب عليها المنطق الدّيني منتشرة في نصوص "نورة سعدي"، وكذا "مبروكة بوساحة".

وإذا كانت "نورة سعدي" تطرقت إلى القضايا العربية بما يفيد أنّها اتّخذت نفسها لسان حال المرأة بشكل خاص، وأنّ "مبروكة بوساحة" اتّخذت نفسها مدافعا عن فلسطين وما يعانيه شعبها يوميا، وبيّنت كيف يحتم عليه الراهن أن يقتدي بالشعب الجزائري في ثورته، فإنّ "نجاح حدة" كتبت عن الراهن العربي بصورة مغايرة (شكلا ومضمونا)؛ فالنص عندها عالم من الأفكار وواقع تجتمع فيه الأزمنة وتندمج فيه الأحداث التاريخية، حتى ليحسّ القارئ بغموضه، لولا بعض المفاتيح التي تحيل النص إلى سياقه وتنبئ عن هويته. ومعظم نصوصها غارقة

في السياسة وفلسفة السلوك، ولا تكاد تكشف عن أنوثتها إلا نادرا، تقول في قصيدة (في موسم الحزن المكثف):

قد بايعوا أسوار ليلتك الطويلهْ
في صوتك الرقراق يمرق الخيل الأصيل
لكنه، من ينتبه، (لصلاح) في حرف الهجاء!؟
من يعتبرْ إن مرّت "البقره"
ومن قد يحتسي صوت المؤذن في النداء على الجهاد
من ذا الجريء/ ليستقل عن الرمادْ
في موسم الحزن المكثف
ما سوينا اختلافات القبائل
في موسم الحزن المكثف
ما قطعنا غير ظل الشمس يجري في اتجاه غير عادلْ
في موسم الحزن المكثف
ما حوّلنا اتجاهات الجداول21

إنّ الوطن العربي الذي خضع طويلا للاستعمار ها هو يحاصر مرة أخرى، فهل يأتي "صلاح الدين" لينقذه من حزنه المكثف؟ مادامت القبائل العربية تتناحر ولا تريد- رغم ما يجمعها من حزن- أن تتوحد.وهي إشارة إلى تعصب الأوطان لأنظمتها وخوضها في مجال الخلافات اللامعقولة نتيجة غياب الوعي البناء. ولم يعد هناك من ينصت للمؤذن ليستعد للجهاد، ويتحرر من الخمول ومن الضياع. والقصيدة تحيل إلى حرب الخليج وما خلفته من هلاك مسّ الأمة كلها، لأنها مُسّت في عاصمتها العلمية (بغداد) التي كانت في عهود سالفة قبلة

للعلم والعلماء، وللفكر والمفكرين، وكلّ الأدباء وصفوة الأمة ممن تركوا آثارهم صامدة وأسماءهم خالدة في عالم الإنسان التّواق إلى ثقافة تحضّره، ومدنية تطوّره.

وترى "نجاح حدة" في موقف آخر أن البلاد العربية اندثر منها كل ما يشير إلى بقاء عزتها وكرامتها، وأن كثرة الاستهلاك لكلّ شيء، والبحث عن الملذات أسهم في زوال روح المبادرة في الدّفاع عن الأرض، تقول:

يا من تحاصره كؤوس الشاي

والشاي المنعنع بالضيافهْ
قف لحظة،/ قد امحّت من أرضنا
أطلال عمر والخلافهْ
هذي جراحك فاحتفظْ / بالفجر لكْ..
هذا زمانك فاحتفظْ / بالوقت لكْ..
يا من تحاصره الوعود
بكفنا المقطوع، قف 22!

إنّ الأمة التي تهمل تراثها وتمحو تاريخها، ولاتتّعظ بما خلّفه لنا السلف من الرّجال الصّالحين كعمر بن الخطاب –رضي الله عنه- الذي زال- في نظرها- وزالت معه الخلافة العادلة والدولة المهيبة، لن تقوم لها قائمة؛ لأن الكف التي تغير الأشياء قطعت والرغبة في الحياة انحسرت في لغو الحديث. وجرح هذا الوطن نتاج وعود كاذبة، وكأن الحكام -في رأي الشاعرة- هم سبب تدهور الأحوال وانقطاع الآمال، لأنهم لم يعيدوا ترتيب الأمور

بالسعي الحثيث للبحث عن وحدة عربية صلبة، تتيح لهذه الشعوب المغلوبة على أمرها أن تستعيد حيويتها بعد هذا الركود.

وتتعجب "نجاح حدّة" من أمر أطفال الحجارة الأبطال الذين لم يجدوا سوى حجر يحمون به شجر الزيتون واخضرار الأغاني، تقول في قصيدة "المطر الآتي":

تحرى صهيل المرايا
وقال: تعالي فهذي الحجارةْ
يريد العواصف/ وجسر العبور ؛
إلى غده المستريحْ
على شفة الضوء والانعتاق
وهذي البروق بذور النخيل الذي
يتوالد من دورة الغضب الدمويةْ
جليا أراه يعود بوردةْ
ويختطف الحلم نجما تثاءب الموت حولهْ

أجمرك يا قمر الأبجديةْ
أم تلظي الشموس الأصيلةْ
تتوق إلى كف طفل/ يباركها بانتمائه

يدحرجها بمزاجهْ...23

إن روح الانتماء لهذا الوطن الكبير سكنت الشّاعرة فتفاعلت معه. فالفلسطيني غيبت هويته، وأدرجت قضيته في رفوف المحافل الدولية، وطُبقت عليه كل أنواع القهر والحرمان، ولم يجد، أمام حلف الصليبيين الجدد، ما يدفع به الظلم عن نفسه سوى حجارة كان يلهو بها الصبيان ليحولوها إلى سلاح، يرجمون بها الظالم المستبد، بينما الأمة العربية

راقدة في سبات الخلافات تنتظر يد الغيب ترفع عنها الجور، وتدفع عنها الموت البطيء. وتشير الشاعرة إلى ثورة الحجارة التي اهتمت بها وسائل الإعلام العالمية اهتماما بالغا وأعطتها الأنظمة الدولية أهمية سياسية أسهمت في تغيير نمطية العلاقات بين الدول العربية، ولكن -رغم ذلك- فالحجر في يد الطفل الفلسطيني عاصفة وجسر للعبور إلى الغد المشرق المستريح.

لقد حركت قضية فلسطين مشاعر الأدباء ابتداء من 1948م، مرورا بحربي (1967 و 1973) وهاهي تعود من جديد، في خلال سنوات الحروب الأخيرة خاصة حرب الخليج، فكانت سببا رئيسيا في غضب الشعراء على الأنظمة الراكدة. وقد حاول الكثير منهم إحياء روح المقاومة وبعث الروابط التاريخية، والمصير المشترك.

وكثير من الشعراء الجزائريين كان لهم موقف سياسي أكثر منه أدبي، خاصة فيما يتعلق بمشكلة البلدين العربيين (العراق والكويت). ونكاد نقول إن الشعر العربي أرّقه الوضع السياسي والاضطرابات الداخلية بين الدول العربية فطغى الفكر السياسي الضيق على مجموعة من الشعراء حتى صاروا (ألسنة أحزابهم) لا يعرفون من الشعر غير المدح والذم، وكأن العصر عصر معلقات. أمّا نصيب الشاعرات الجزائريات فقد كان وافرا، وإن اختلفت توجهاتهن الفكرية، غير أنهن أبدين معاناتهن وفلسفتهن في ضبط السلوك الحضاري للواقع العربي. وقد بدا الاتجاه القومي حتى في ثنايا حديثهن عن الطفولة والأمومة، أو حين يراودهن حلم أنثوي يبحثن من خلاله عن التحرر من بعض القيود

المفروضة عليهن، كما لوحظ ذلك في نصوص "زينب الأعوج" و"ربيعة جلطي" و"أحلام مستغانمي" و"حبيبة محمدي" وغيرهن.

ولو اقتصر المقام على تجربة شاعرة واحدة لأمكن أن يُكشف النقاب عن موضوعات كثيرة، كأن تُدرس النزعة القومية في شعر"مبروكة بوساحة"، أو قضايا الثورة والمجتمع في شعر "نورة سعدي"، أو المرأة والحب في شعر "أحلام مستغانمي"، أو الغربة و الحنين في شعر "حبيبة محمدي" وغيرها من المواضيع التي بإمكان أيّ باحث أن يلج عالمها، وسيجد الكثير من الظواهر الفلسفية والفكرية والفنية التي تستحق الدّراسة والتّحليل.

إحالات:

[1]- زهير بن أبي سلمى(نحو530-627)، شاعر جاهلي من أصحاب المعلّقات، ومن ذلك قوله: فرحت بما خبرت عن سيديكم وكان امرأين كل أمرهما يعلو
رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وهو يصور فرحته بحل النزاع بين "عبس" و"ذبيان". ينظر في ذلك:الزوزني: شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية صيدا،بيروت، ط01، 1998، ص.112

[2]- شاعر مخضرم (ت674)، من أهل المدينة،مدح الغساسنة في الجاهلية،أسلم ولقّب بشاعر النبيّ.

[3] - حسّان بن ثابت الأنصاري: الدّيوان، شرح يوسف عيد،دار الجيل، بيروت،ط1، 1992، ص.237

[4] - عبد الله الركيبي:قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1983، ص.13.

[5] - المرجع نفسه، ص13 .

[6] - المرجع نفسه، ص13 .

[7] - ينظر، المرجع نفسه، ص20-37.

[8] - مبروكة بوساحة:براعم، ص19-20.

[9] - زينب الأعوج: أرفض أن يدجن الأطفال، ص.73.

[10] - المصدر نفسه، ص.29.

[11] - زينب الأعوج:يا أنت من منا يكره الشمس، ص79.

[12]- عيد الفصح: يوم تذبح فيه الذبائح، وقد أشار "نجيب الكيلاني" في روايته "دم لفطير صهيون" إلى أن بعض اليهود ممن يحرف (التلمود) يحبذ

أن تكون الذبيحة إنسانا مسلما أو مسيحيا، ليُصنع من دمه فطيرا خاصا، (الرواية وقعت أحداثها سنة 1940م بإحدى حارات دمشق).

[13]- ربيعة جلطي: تضاريس لوجه غير باريسي، ص.16

[14] - المصدر نفسه، ص.59

[15] - المصدر نفسه، ص.61

[16] - المصدر نفسه، ص.24

[17]- المصدر نفسه،ص.26

[18] - نورة سعدي:جزيرة حلم، ص.85

[19] - المصدر نفسه، ص.41

[20] - المصدر نفسه، ص.42

[21] - نجاح حدّة: في موسم الحزن المكثّف، مجلة القصيدة (ملحق لمجلة التبيين، الجاحظية) ، عدد خاص بالشعر، الجزائر، 1991، ص.142

[22] - المرجع نفسه، ص.143

[23] - المرجع نفسه، ص147.